جامعة كربلاء
كلية العلوم الإسلامية
دراسات اسلامية معاصرة / العدد 36 / حزيران 2023

صراع الغرب والشرق صراع حضارات أم صراع أديان؟

The conflict of the West and the East, a conflict of civilizations or conflict of religions?

م.م علي جواد كاظم الجبوري
Asst.lect. Ali Jawad Kadoom Al-joboory
أ.م.د. صفاء حسين لطيف المسعودي
Asst. Prof. Dr. Safaa Hussein Latif Al Massoudi

جامعة كربلاء/ كلية العلوم الإسلامية
University Of Karbala / College of Islamic Sciences

الكلمات المفتاحية: الصراع، الغرب، الشرق، الحضارات، الأديان.

Keywords: Conflict, West, East, Civilizations, Religions.

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على الصراع الحضاري الديني بين الغرب والشرق، الذي استمر طوال القرون الماضية من ظهور الإسلام وما تلا تلك المدة من مواجهات وحروب، والنظرة التي يرى بها كل طرف الطرف الآخر، ونزال الهيمنة والاستبداد، وفعل التمكّن من مقاليد السيطرة على العالم المنوط بالغرب، ومحاولة الشرق مقاومة تلك الهيمنة، والانقلاب عليها، والصراع الفكري الثقافي القائم بين الطرفين، وقد ركّز البحث على آراء وكتابات المستشرق برنارد لويس في هذا الخصوص.

Abstract :

This research aims to focus on the religious civilizational conflict between the West and the East, which has continued throughout the past centuries of the emergence of Islam and the ensuing confrontations and wars, the view with which each side sees the other, the struggle for domination and tyranny, the act of mastering the reins of control over the world entrusted to the West, the attempt of the East to resist that domination, the coup against it, and the intellectual and cultural conflict that exists between the two parties, and the research has focused on the views and writings of the Orientalist Bernard Lewis in this regard.

مقدمة:

تمثّل هذه الدراسة خطوة نقدية تقوّم الخطاب الغربي المركزي، وتواجهه بشيء من الكشف الصادم للأنساق المضمرة وإخراجها للعلن، إذ تشتغل على عرض أنساق الصراع بين الغرب والشرق، من أجل كشف زيف الخطابات الغربية المركزية، والسرديات الكبرى التي تُسيطر على المتخيّل الغربي، والماكنة الإعلامية الاستعمارية الغربية، التي تصوّر المسلم (الآخر) بأنّه متخلّف، دموي، عنيف، ذو فكر إقصائي، لا يؤمن بالحوار والتعايش مع المقابل.

سأتعرض في هذه الدراسة، لإظهار تلك الصراعات المخبوءة وراء الخطاب الاستشراقي، وفضح ما استتر منها خلف خطابات المركز، إذ تحتدّ عملية الاستقطاب والصراع بين المركز والهامش (الغرب/الشرق)، وتستمر وتعبُر السنوات والأزمنة، دون أن يتساءل أحدٌ عن شرعية المركز فيها، في صراع مُضمر أحيانًا، ومُعلن حينًا عبر احتجاجات اجتماعية أو أشكال رفض علنية.

وقد تناولت في هذه الدراسة عددًا من كتب برنارد لويس، هي: (أزمة الإسلام، والإسلام في التاريخ، والعرب في التاريخ، ولغة الإسلام السياسي، واستنبول وحضارة الخلافة الإسلامية، والإسلام الأصولي، وجذور الغضب الإسلامي، والحشاشون، والنقابات الإسلامية، وأين الخطأ، والهويات المتعددة للشرق الأوسط)

المطلب الأول:

صراع الغرب والشرق

يظهر عن طريق كتابات لويس الاستشراقية تكرار استخدام بعض الكلمات مثل (الغرب، الشرق، الإسلام، الحرب، الصدام، النمط الغربي) في غالبية كتبه، بشكل مُبالغ فيه، وهي دلالة على طبيعة النسق المركزي، القائم على وجود حالة صراع مستعر بين الغرب والشرق، وهو ما يلاحظ عن طريق تعبيراته، في تجلٍ واضح لتأثره بمتبنيات الفكر الغربي من تحديد الخلاف مع الآخر الشرقي، وبروز القطيعة بينهما، يقول الشاعر الانكليزي روديارد كبلينغ(*): الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا[1]، وهذا القول بمثابة حكم قطعي لا جدال فيه، في لحاظ أنّ كل معرفة بالآخر هي معرفة تقييمية تستند إلى منظومة قيم معيّنة تمارس تأثيرها على الباحث، فتوجّه تعامله مع الموضوع الذي يدرسه، وتوجّه اختياره للمفاهيم والفرضيات والوقائع.

وفي هذا يقول لويس: ((لقد طال الصراع بين الأنظمة المتنافسة لمدة أربعة عشر قرنا، حيث بدأ مع تقدم الإسلام في القرن السابع الميلاديّ، واستمر عمليا حتى زمننا الحاضر. تشكّل هذا الصراع من سلسلة طويلة من الهجمات والهجمات المضادة على شكل جهاد وحملات صليبية وفتوحات مضادة، تقدم الإسلام للألف سنة الأولى، وكانت المسيحية ضحيته المهزومة... لكن منذ الثلاثمائة سنة الأخيرة وظهور الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية في آسيا وإفريقيا، كان الإسلام منذ ذلك الوقت في وضع الدفاع، ونجحت الحضارة المسيحية وما بعد المسيحية لأوروبا وبناتها في إخضاع العالم كله وضمنه الإسلام))[2]. وهذا الكلام يلخّص حالة الكرّ والفر في الصراع بين الطرفين.

إنّ سبب الصدام الحضاري بين الإسلام (الشرق) والغرب برأي المستشرق برنارد لويس يعود الى بنية الفكر الإسلامي المقاوم للحداثة ومنظومة القيم الغربية، ورفضه الاعتراف بتفوقها عليه، والإقرار بهزيمته أمامها، وأنه لا علاقة لهذا الغضب الإسلامي بالظلم أو التجربة الاستعمارية الغربية في العالمين، الشرقي والإسلامي، واعتبر لويس أنّ الصراع العربي الإسرائيلي جزء من هذا الصراع الحضاري الإسلامي مع التراث اليهودي– المسيحي.

أسّس برنارد لويس ما أطلق عليه الخطر الإسلامي عبر نشره لفكرة الصدام الوشيك بين الغرب والإسلام، والتي تبنّاها فيما بعد هنتنغتون ليحوّلها إلى نظرية وكتاب بالعنوان ذاته، إذ يرى لويس انّ الأيديولوجيّة الإسلامية تشكّل عقبة أمام وجود الليبرالية الديمقراطية وحظوظ تقدّمها في العالم الإسلامي، إذ تتعارض مبادئها مع مبادئ الفكر الإسلامي، ممّا يصعّب تقبّل تلك القيم الغربية في العالم الإسلامي، وهي بذلك تحتاج إلى وقت طويل لحدوث التغيير، وهو ما يعني أنّ المبادئ الإسلامية تشكّل خطرًا على الليبرالية الغربية يجب معه تغييرها حتى تتوافق مع تلك المبادئ والقيم الغربية، وبذلك تصبح أكثر اندماجًا مع الفكر الليبرالي لتخرج من إطارها التقليدي وأصوليتها الفكرية[3].

إنّ ((تاريخ العلاقات بين الحضارتين الاسلاميّة والغربية عرفت فترات حوار وتفاعل، وفترات صدام وتطاحن، والغزو الحديث للأمة الإسلاميّة جاء بالمدافع والنهب الاقتصادي، ثم تلاه غزو فكري، ارتكز على الثالوث المشهور: الاستعمار والتنصير والاستشراق))[4].

وإنّ المُجتَمعات الإسلامية من الصعب اختراقها ولذلك فإن ((أي عدوان خارجي من الصعب انتصاره عسكرياً ما لم يستطع اختراق منظومة القيم لهذه المُجتَمعات التي عادة ما تعمل كمصدات لأي عدوان أو محاولة اختراق. وهذا الواقع وعته أغلب القوى الاستعمارية التي سيطرت على الوطن العربي والتي تحاول اليوم فرض الهيمنة من جديد، عن طريق البحث عن سبل مقبولة لإشاعة منظومة قيم أخلاقية جديدة تتلاءم ومفهوم العولمة، وتتلاءم كذلك مع مصالح الهيمنة الجديدة))[5].

ويظهر تحامل بعض كبار المستشرقين الذين تأثّر بهم لويس مثل (جولدتسيهر) وتأويله للوقائع التاريخية وتحريفه للحقائق، وتشويهه للنصوص، وفق أهدافه التي سعى إليها، واعتماده على مصادر لا قيمة لها في نظر العلم، وتكذيبه للمصادر العلمية المعترف بها عند أئمة المسلمين والعلماء المحققين[6]،

يعتمد المستشرقون في كثير من الأحيان على آراء مستشرقين يكيلون التهم ويظهرون العداء للإسلام والمسلمين، أمثال جورج سيل، الذي وضع لترجمته الصادرة عام1734 مقدمة طويلة شنّ فيها هجومًا عنيفًا ومضللًا على القرآن المجيد، ولم يترك فرية إلّا و رماه بها، فقد ادّعى أنّ القرآن ليس وحيًا، وأنّه ليس معجزًا، وأنّه مستمد في معظمه من اليهودية، ليس في موضوعاته فحسب، بل وكذلك في تقسيمه إلى أجزاء وأحزاب، وسور وآيات. كما وصف محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنه مؤلف القرآن[7].

يعزو (برنارد لويس) امتلاك المسلمين شعور العداء للغرب إلى وجود ((شيء ما في الثقافة الدينية الإسلامية يسهم حتى أولئك الناس الأكثر تواضعًا وسذاجة شعورًا بالكرامة والاحترام والتعالي تجاه الآخرين، ولا يزال هذا الإحساس بالكرامة والشموخ تجاه الآخرين يعطي –خاصة في لحظات الجيشان والتمزّق حينما يثور الغضب– الوسيلة لخليط ممزوج من الكراهية والمقت الذي يدفع حتى الحكومات العريقة والمتحضرة وحتى المتحدثين باسم ذلك الدين العظيم ليناصروا أعمال الخطف والاغتيال، ويحاولوا أن يجدوا في سيرة نبيهم استحسانًا وسوابق لأعمال كهذه))[8].

وهي محاولة لغرس الخوف من شيء مجهول (شيء ما) يمثّل الخطر ويهدد الغربيين دائمًا، فتخويف الإنسان من المجهول أشدّ أنواع التخويف، و((الناس أعداء ما جهِلوا))[9] كما قال أمير البيان (عليه السلام).

صراع حضارات

رسم المفكرون الأوروبيون سلسلة من الصفات التي اعتقدوا أنّ الغرب يمتلكها متميّزًا عن الحضارات المجاورة الأخرى، كالحرية، والعقلانية، والعلم، والتقدّم، وروح الاختراع وغيرها، معتبرين هذه القيم والصفات قيم مركزية للحضارة الغربية مفترضين أنّ أصولها ترجع للإغريق القدماء، وفي المقابل تتّسم تلك المجتمعات المجاورة (الإسلامية) بالاستبداد والمعاناة والانحرافات الاجتماعية والسياسية، الأمر الذي يفسّر تفوق الغرب، ويبرّر حكم

الغرب للمجتمعات غير الغربية، لأن الوصاية الغربية وحدها التي يمكن أن تنهي الاستبداد في تلك المجتمعات[10].

يشخّص (لويس) حالة الشعوب الشرقية المسلمة الحالية الناقمة على مركز الغرب (الولايات المتحدة الأمريكية) مفسّرًا سبب موقفها السلبي تجاهها بقوله: ((إنّ غريزة الجماهير الفطرية في عزو المنابع الجوهرية لهذه التغييرات العنيفة والمفاجئة إلى الغرب، وفي عزو سبب تمزق حياتهم القديمة إلى الهيمنة الغربية والتأثير الغربي، هذه الغريزة ليست بالتأكيد أمرًا زائفًا، وباعتبارها الوريث الشرعي للحضارة الغربية والقائد الأوحد المميز للغرب، فإن الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت القبلة التي توجه ضدها الكراهية والامتعاض المكبوتان))[11].

ويقدم عددًا من الأمثلة على حالات مهاجمة السفارة الأمريكية في مناطق متفرقة من العالم الإسلامي، مبيّنًا أن ما يحصل هو مواجهة لتيار وحركة يتجاوزان بكثير مستوى السياسات والحكومات، ((وهو شيء ليس أقل من (صراع الحضارات)، إنه رد فعل –ربما غير عقلاني– لكنه تاريخي لمنافس قديم موجه ضد ميراثنا اليهودي–المسيحي، وضد حاضرنا الراهن))[12].

يتسّع توجيه لويس لهذا العداء فيحلّل الكراهية الشرقية للغرب على أنّها رفض للحضارة ككلّ، إذ تتجاوز هذه الكراهية في بعض الأحيان العداء لتطال مصالح خاصة أو حركات أو سياسات أو حتى بلداناً، حتى أنّها تصبح رفضًا قاطعًا للحضارة الغربية، رفضًا لا يهم الفعل العدواني فقط، بل يشمل أيضا الرفض الكُلّي لها في المبادئ والقيم التي تمارسها وتعتز بها، إلى حد عدّها شرّ متأصّل لا يُطاق، ويُعدّ الدعاة إلى ذلك ومتقبّلوه (أعداء الله)[13]. وهو في هذا القول يردّ على الاحتمالات وينقض الافتراضات التي يمكن أنْ يطرحها القارئ، لإبعاد التهمة عن السياسة الغربية في التعامل مع البلدان الإسلامية، ولينفي المسؤولية عنها، عبر خلق صورة نمطية ثابتة وقارّة، توحي للغربي بأنّ الكره والحقد الشرقي شعور متأصّل في المسلمين بما هم مسلمون، وليس نتيجة مباشرة وحتميّة لسياسات الدول الغربية.

يعلّل (لويس) التصادم الحضاري بمجموعة من الأسباب، منها ما يرجع إلى الدين الإسلامي ذاته، ومنها ما يتعلّق بمشاعر الغضب والكراهية على الغرب، نتيجة الانتقالة المفاجئة وغير المتوقعة من التفوق والغلبة إلى التدني والانهزام[14]، إنّ نظرية المؤامرة الإسلامية والقطيعة بين الحضارات أعطت مفهومًا للعالم إنّه لم يعد هناك صراع الغرب/الشرق بعدّهما قوتين عظيمتين تدفعهما الأيديولوجية المضادة، لكن ثمّة حرب بين الحضارتين، حضارة الغرب المتقدّمة، وحضارة أخرى تأخذ شكل البداية البربرية حسب تصوّر لويس.

يقول برنارد لويس متّهمًا المسلمين بعجزهم وقصورهم: ((يتّسم المسلمون، مثل معظم غيرهم من الشعوب التي كانت مُستعمرة، بعجزهم عن قول الحق أو حتى إدراك الحقيقة، إذ أنّهم يدمنون الأساطير، شأنهم في هذا شأن المدرسة التنقيحية المزعومة في الولايات المتحدة، وهي التي تتطلّع إلى عصر ذهبي قديم تزينه الفضيلة الأمريكية، وتنسب كل الخطايا والجرائم تقريبًا إلى المؤسسة الاجتماعية الحالية في بلادهم))[15]، ووفقًا لقول لويس، فهو يضع نفسه كـ(غربي) في مرتبة أعلى من مرتبة من يتحدّث عنهم (المسلمين)، فهم مجرّد مسلمين يؤمنون بالأساطير، وهؤلاء المسلمين يعيشون الوهم والخيال بنسب كل أخطاء زمنهم إلى غيرهم تنصّلًا من

المسؤولية، وتهربًا من واجبهم كأعضاء في المجتمع، وبدلًا من ذلك فإنّهم يعيشون حلم الماضي الذهبي المختلق أو المُبالغ فيه. إذ يرى الغرب نفسه محمّلًا بعبء القيام على تحضّر شعوب الشرق وترويضها فهو المسؤول عن التدخّل في تغيير ذلك المجتمع الجامد، بحكم منطق التفوّق الحضاري والعِرقي فإنّه على الغرب أن يقود الأمم الأدنى منه[16].

المطلب الثاني:

كره المسلمين للغرب

يُرجِع لويس فكرة كره المسلمين للغربيين بصفة عامّة إلى بداية الدعوة الإسلامية وبدء تشكّل الإسلام، واستراتيجيته في غرس الكره تجاه الغرب وحضارته، فلم يكن المسلمون يشعرون بخطر تجاه الوثنيين والمشركين في الشرق والجنوب، ((أمّا في الشمال والغرب فقد أدرك المسلمون منذ البدايات الأولى أنّ هناك خصمًا حقيقيًا، دينًا عالميًا منافسًا، وحضارة متميزة بنيت بإلهام من ذلك الدين وإمبراطورية رغم أنّها أصغر من امبراطوريتهم فإنّ طموحاتها لا تقل مطلقًا عن امبراطوريتهم في تطلعاتها))[17].

إنّ رسم لويس لصورة الصراع بين الإسلام والغرب على أساس كره المسلمين لتميّز الحضارة الغربية وعالمية الدين المسيحي، وإنّ الصراع هذا أزلي لن ينتهي إلّا بانتصار أحدهما على الآخر، ربّما يعطي الذريعة ويقدّم المبرّر للغرب في مواجهة هذا الكره والعداء.

يرى لويس بأنّ المسلمين قد تنبّهوا لخطر المسيحية المباشر على الإسلام، أكثر من بقية الديانات، لتقارب الديانتين وتصارع أتباعهما، للسيطرة على العالم، فقد ((أدرك المسلمون منذ وقت مبكّر اختلافات معينة بين شعوب (دار الحرب) ولم تكن معظم تلك الشعوب المشركة أو الوثنية تمثّل خطرًا جديًا على الإسلام، وكان دخولهم فيه أمرًا متوقعًا، كان هؤلاء في آسيا وأفريقيا بصفة أساس، أمّا الاستثناء الرئيس فكان المسيحيون الذين يعرفهم المسلمون بأنّهم أصحاب ديانة من نوع ديانتهم وعليه فهم غرماؤهم الأساس في صراع الهيمنة على العالم))[18]. فهو يقرأ مفترضًا ما فكّر فيه المسلمون تجاه الخطر الغربي المحيط بهم وكيفية تعاملهم مع هذا الخطر والآليات الواجب اتباعها للحد منه على أقل تقدير إنْ لم نقل القضاء عليه.

إنّ الحوار الإنساني الحضاري تمثّله الأغلبية في المجتمعات الشرقية والغربية، إلّا أنّ السياسة وأهدافها تدفع باتجاه الصدام، خدمة لأهداف محددة عنصرية تمييزية، وكتابات إدوارد سعيد عن الاستشراق توضّح تلك الكيفية التي صنّع بها الغرب الشرق بطريقة تزيد من التباعد والانفصال بينهما، ووصفه على أنّه اختراع غربي وغايته أنْ يمثّل الشرق ويعبّر عنه، بما يخدم المصالح الاستعمارية الغربية، وأنّ جميع المعارف الاستشراقية اعتمدت أساسًا على (الإنشاء) والتخيّل دون تصوير الواقع الحقيقي[19]، فالشرق الذي صوّره المستشرقون ليس واقعياً، إنما صُنِعَ كما أريد له أن يكون، لذلك أحدث تطبيق هذا التصوّر المتخيّل أزمة أدّت إلى الشعور بالتفوق الغربي، ويؤكد أنّ الاستشراق ليس إلّا إسقاطًا غربيًا على الشرق، وأنّه على علاقة مشبوهة مع الأنظمة الكولونيالية والنظريات العرقية العنصرية التي قسّمت العالم إلى شرق وغرب افتراضيين[20].

هاجس الخوف

تمثّل عودة هيمنة العرب والمسلمين على زمام المشهد العالمي هاجسًا يراود الغربيين عمومًا ويصرّح به خوفًا المستشرقون خصوصًا، فقد ((ظل الإسلام لما يربو على ألف سنة، المصدر الأوحد للقواعد والمبادئ التي تمثل مجموعة قوانين يقبلها الجميع لتنظيم الحياة العامة والحياة الاجتماعية، بل ظلت الأفكار والمواقف السياسية الإسلامية ذات تأثير عميق وواسع المدى حتى في الفترة التي وصل فيها النفوذ الأوروبي ذروته، في البلدان التي تحكمها أو تسيطر عليها الدول الإمبريالية))[21]، وكذلك الحال مع البلدان التي احتفظت باستقلالها، وظهرت بوادر كثيرة في السنوات الأخيرة على إمكانية عودة هذه الأفكار والمواقف إلى احتلال مواقع سيادتها السابقة، وهو ما يثير حفيظة وقلق الغرب بالتأكيد.

يُبدي كثير من المستشرقين إعجابهم بمسيرة الإسلام وكيفية صنعه لدولة عظمى قائمة على أسس وقيم اجتماعية وإدارية واقتصادية ناجحة وفاعلة، استمرت تحكم لفترات طويلة من الزمن، هيمنت فيها على اجزاء واسعة من العالم امتدت في أراضي آسيا وأفريقيا وأوروبا، لكن بعضاً منهم يبدي خوفه من عودة هيمنة الإسلام على مقاليد حكم العالم، ولويس يراوده هذا الخوف، وهو ما يتضح عن طريق قوله: ((قدّم الإسلام على مدار ما يربو من ألف سنة المنظومة الشاملة المقبولة الوحيدة من القواعد والمبادئ التي تنظّم الحياة العامة والاجتماعية، حتى في عهود ذروة النفوذ الأوروبي، في البلدان التي حكمت فيها القوة الإمبريالية الأوروبية أو فرضت هيمنتها عليها، وفي عهود استقلال تلك البلدان، ظلّت الأفكار والمواقف الإسلامية عميقة التأثير، واسعته، ثمّة علامات عدة اليوم على أنّ تلك الافكار والمواقف ربما كانت في طريقها إلى العودة مجدّدًا، ولو بصيغ معدّلة، لاستعادة سابق هيمنتها))[22].

وقد كتب برنارد لويس محذِّراً من ((عَوْدَة الإسلام))[23]، ومنذِراً باحتمال ظهور قيادة إسلامية قادرة على الأخذ بيَدِ المسلمين إلى مركز القوة، مستبعداً، في الوقت ذاته، قابلية الإسلام للتعايش مع الآخر والتسامح مع غير المسلمين.

تتطابق أفكار لويس مع أفكار صامويل هنتنغتون المستقبلية في رسم صورة للعالم، فقد تنبّأ(هنتنغتون) في كتابه (صدام الحضارات) المأخوذ عنوانه من مقال سابق لبرنارد لويس، بأنّ الغرب صاحب الهيمنة العالمية, يتّجه نحو نهايته؛ لأنّ الآخرين يلحقون ويسبقون, ويقصد بذلك المسلمين والصين، ولذا ستتفوق آسيا على الغرب, وسوف تصبح الصين القوة الاقتصادية العالمية العظمى في القرن الحادي والعشرين[24].

إنّ ((تاريخ العلاقات بين الحضارتين الاسلاميّة والغربية عرفت فترات حوار وتفاعل، وفترات صدام وتطاحن، والغزو الحديث للأمة الإسلاميّة جاء بالمدافع والنهب الاقتصادي، ثم تلاه غزو فكري، ارتكز على الثالوث المشهور: الاستعمار والتنصير والاستشراق)) [25]. فتاريخ العلاقة بين الطرفين مزدحم بالأحداث

المتناقضة، منها ما يُحسب على الجانب السلمي وفترات الحوار والإيجابية وتبادل الرؤى والأفكار، والآخر فيما يتعلق بالاستعمار والحروب والاختلاف الصادم، ولذلك فإنّ العلاقة تتأرجح بين الكفتين.

وسائل الهيمنة

ضمن دائرة الصراع السلمي وفي إطار سعي الغرب للاستحواذ والسيطرة وتحقيق هدفهم في الهيمنة على العالم؛ سلك المستشرقون –بعدّهم واجهة الاستعمار الغربي وأداته– كل السبل الكفيلة بالوصول الى نشر أبحاثهم وإيصال أفكارهم وبثّ سمومهم بين أرجاء المجتمع المسلم عموما والعربي خصوصًا، ولم يتركوا وسيلة إلّا وعملوا عن طريقها، ومنها: تأليف الكتب التي احتوت على التحريف المتعمد في نقل النصوص أو بترها، وإصدار المجلات وتنظيم إرساليات التبشير، وإلقاء المحاضرات في الجامعات والجمعيات العلمية، وإصدار الصحف في البلدان الإسلامية لنشر المقالات والبحوث والآراء، وعقد المؤتمرات والندوات، وانشاء الموسوعة الكبرى المعروفة بـ(دائرة المعارف الاسلامية) بعدة لغات، وقد ترجمت الى معظم اللغات واحتوت على جهود عدد كبير من المستشرقين المتشدّدين الذين طرحوا آراءهم ومقاصدهم عبر سياسة دس السم في الدسم، وملئت بالأباطيل عن الاسلام والقرآن، وروّج لها بطرق كثيرة ومتعدّدة حتى اصبحت لشدة انتشارها مرجعًا لكثير من المثقفين المسلمين بحيث صارت تعدّ حجّة فيما يتكلمون به[26].

ففي انكلترا يحظى الاستشراق بمكانة مهمة ومحترمة في الجامعات كلندن واكسفورد وكمبرج وادنبرة وجلاسكو وغيرها، ويشرف عليه يهود استعماريون وانكليز مبشرون، يحرصون على أن تظل مؤلفات (جولدزيهر) و(مرجليوث) ثم (شاخت) هي المراجع الأصلية لطلبة الاستشراق وللراغبين في حمل الدكتوراه عندهم من العرب والمسلمين، وهم لا يوافقون أبدا على طلب الدكتوراه يكون موضوعها إنصاف الإسلام وكشف دسائس اولئك المستشرقين، ومن المؤسف أنّ طلبة الدراسات العليا الذين يدرسون باللغة الانكليزية في بلادهم لايزالون مضطرين إلى دخول الجامعات الانكليزية والامريكية وهم لا يجدون بدًا من اللجوء لمراجع كتلك المراجع المسمومة فتتقرر عندهم أن تلك الدسائس مأخوذة من كتب الفقهاء والعلماء المسلمين أنفسهم[27].

رعاية الكنيسة

إنّ دراسة المستشرقين للإسلام قامت بوحي الكنيسة الكاثوليكية للانتقاص من الاسلام وإهدار قيمه وتعاليمه، حرصًا على الكنيسة وتعويضًا للهزائم الصليبية أمام المسلمين، ولقد كان التبشير والاستشراق طلائع الاستعمار لغزو المسلمين والسيطرة على بلادهم[28]، وإنّ المؤلفات الاستشراقية الأولى التي وصلت إلينا غلب عليها الطابع العدائي الحاقد على الإسلام، ونبيه الكريم محمد (ﷺ)، وما كانت لتظهر هذه العدائية لو أنّ هذه المؤلفات كتبت في ظل الظروف الطبيعية، فقد كتبت خلال حملات الصليبيين على الشرق الإسلامي وفي ظل احتدام الصراع المسيحي – الإسلامي مرسخًا النظرة العدائية المسيحية للإسلام[29].

ويظهر تحامل بعض كبار المستشرقين الذين يأخذ عنهم لويس مثل (جولدتسيهر) تأويلهم للوقائع التاريخية وتحريفهم للحقائق، وتشويههم للنصوص، وفق أهدافهم التي سعوا إليها، واعتمادهم على مصادر لا قيمة لها في نظر العلم، وتكذيبهم للمصادر العلمية المعترف بها عند أئمة المسلمين والعلماء المحققين[30].

لم يظهر لويس عداءه للإسلام بشكل مباشر، بل مال إلى إخفاء عقيدته وتشدّده خلف ستار من العلمية التأريخية –ظاهرًا على الأقل– فهو يحلّل الحوادث والمنعرجات التاريخية بموضوعية مقنعة نوعًا ما، يتماهى فيها مع الرأي السائد والرواية الرسمية.

إنّ المستشرقين قد اتخذوا من ماضي المسلمين أداةً لتشويه حاضرهم فزيفوا الماضي كما زيّفوا الحاضر، حين عكسوا للمجتمع الغربي أمورًا ليست من صلب الحقيقة، بدوافع دينية وسياسية وغيرها، وهكذا وُضِع الشرقي في أطار محدّد مرسوم له، لا يستطيع التحدث عن نفسه فهو مسلوب الإرادة، قاصر الرؤية معتمد دائما على الغربي، مقتنع بأنه دون مستوى فهم التراث وأنه بحاجة لعون الغربي في ذلك، فهو يستمد الأفكار منه لفهم نفسه وحضارته وتراثه[31].

صراع وجود

لم يكن الصراع بين الغرب والإسلام صراع هامشي أو ثانوي أو بسيط، بل كان صراع وجود، فعندما ((تحطّمت آمال الغرب وأحلامه على أسوار مقاومة العرب العنيفة أقام بالخيانة والتآمر الدولي قاعدته المشهورة الممثّلة بالصهيونية التي تعمل ما في وسعها لمحاربة كل ما هو عربي وإسلامي في أنحاء العالم فلم يعد ما بيننا وبين اسرائيل صراعًا على حدود وإنّما صراع على وجود))[32].

وخلال هذا الصراع الوجودي المستمر بين العرب والغرب ولدت في أوروبا فلسفة الاستشراق التي تسعى جاهدة إلى معرفة حضارة الشرق، المنطلقة من رؤية مفادها أنّ ((لكل فرد يمثّل تلك الحضارة موقفاً وجودياً، وفي هذا الموقف ولدت الحقيقة التي نحاول جلاءها تعبيرًا عن ذلك الموقف، أو تسكينًا له وتخفيفًا، وكل ذلك في حاجة إلى أن نتبصّره ونتدبره))[33]. ومن هنا حاول أصحاب الاستشراق التعرّف على الشرق والتغلغل في آفاقه الفكرية بدراسة آدابه وثقافته وفق منهاج وأهداف تبدو واضحة عن طريق مؤلفاتهم وترجماتهم وتحقيقاتهم، فأثّروا بطريقة أو بأخرى في النهضة العربية الحديثة عامة[34].

إنّ فرض السياسات والأفكار والتوجهات المركزية لا بدّ وأن يقابله رفض واستنكار من قبل الهامش وإن لم يكن مُعلنًا، ومركز العالم الغربي اليوم هو الولايات المتحدة الأمريكية، التي تحاول بمختلف السبل دعم حلفاءها وفرض نفوذها وهيمنتها على العالم، الأمر الذي يخلق العداء بينها وبين شعوب الدول الإسلامية المناهضة لهذه الهيمنة في (الشرق). ((إن السبب الذي يقدّم باستمرار كمبرر للمشاعر المعادية لأمريكا بين المسلمين هو الدعم الأمريكي لإسرائيل، وهذا الدعم بالتأكيد عامل أهمية يزداد بروزًا بالاطراد مع ازدياد التورّط))[35].

النتائج:

في نهاية هذا البحث يمكن إيجاز النتائج بما يلي:

- حاول أصحاب الاستشراق التعرّف على الشرق والتغلغل في آفاقه الفكرية بدراسة آدابه وثقافته وفق منهاج وأهداف تبدو واضحة عن طريق مؤلفاتهم وترجماتهم وتحقيقاتهم.

- يظهر عن طريق كتابات لويس الاستشراقية تكرار استخدامه بعض الكلمات التي تعبّر عن مركزية الذات بشكل مُبالغ فيه، دلالة على طبيعة النسق المركزي، القائم على وجود حالة صراع مستعر بين الغرب والشرق.
- تأثّر لويس بمتبنيات الفكر الغربي عبر تحديد الخلاف مع الآخر الشرقي، وبروز القطيعة بينهما، وإيمانه بالمقولة: الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا.
- إنّ سبب الصدام الحضاري بين الإسلام (الشرق) والغرب برأي لويس يعود الى بنية الفكر الإسلامي المقاوم للحداثة ومنظومة القيم الغربية، ورفضه الاعتراف بتفوقها عليه، والإقرار بهزيمته أمامها، وأنّه لا علاقة لهذا الغضب الإسلامي بالظلم أو التجربة الاستعمارية الغربية في العالمين، الشرقي والإسلامي، جاعلاً الصراع العربي الإسرائيلي جزءاً من هذا الصراع الحضاري الإسلامي مع التراث اليهودي–المسيحي.
- يحلّل لويس الكراهية الشرقية للغرب على أنّها رفض للحضارة ككلّ، إذ تتجاوز هذه الكراهية في بعض الأحيان العداء، لتطال مصالح خاصة أو حركات أو سياسات أو حتى بلداناً، حتى أنّها تصبح رفضًا قاطعًا للحضارة الغربية.
- يظهر تحامل بعض كبار المستشرقين الذين يأخذ عنهم لويس تأويلهم للوقائع التاريخية وتحريفهم للحقائق، وتشويههم للنصوص،على وفق أهدافهم التي سعوا إليها، واعتمادهم على مصادر لا قيمة لها في نظر العلم، وتكذيبهم للمصادر العلمية المعترف بها عند أئمة المسلمين والعلماء المحققين.
- يعزو لويس امتلاك المسلمين شعور العداء للغرب إلى وجود شيء ما في الثقافة الدينية الإسلامية يسهم بالإحساس بالكرامة والشموخ تجاه الآخرين يعطي الوسيلة لخليط ممزوج من الكراهية والمقت، الذي يدفع الحكومات العريقة والمتحضرة وحتى المتحدّثين باسم ذلك الدين العظيم ليناصروا أعمال الخطف والاغتيال، ويحاولوا أن يجدوا في سيرة نبيهم استحسانًا وسوابق لأعمال كهذه.

الهوامش:

* روديارد كبلنغ 1865–1930، كاتب وشاعر وقاص بريطاني ولد في الهند البريطانية. من أهم أعماله "كتاب الأدغال". مجموعة من القصص، و العديد من القصص القصيرة، حاصل على جائزة نوبل عام 1907، ينظر: https://www.marefa.org موسوعة المعرفة

(1) دور الأديان في السلام العالمي: محمد سعيد رمضان : 7

(2) جذور الغضب الإسلامي :برنارد لويس، تر: عبد الباسط منادي ادريسي، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث،2018، مصدر المقال :Lewis، .Bernard. (the Roots of Muslim Rage) The Atlantic Monthly 3. Pp. 47–60،Sep1990: 266

(3) ينظر: ظاهرة الإسلاموفوبيا وأثرها على الحوار المسيحي الإسلامي: نورة عبدالله الوارد، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، 2021: 56

(4) الغرب والإسلام (حوار أم صراع): د. زيد عدنان محسن، المجلة السياسية والدولية، كلية العلوم السياسية، جامعة النهرين، بغداد، 2009 : 6.

(5) المعايير الاخلاقية وحقوق الانسان في ضوء التطورات الدولية الراهنة : د. سلمان الجميلي، مجلة قضايا سياسية، كلية العلوم السياسية، جامعة النهرين،بغداد، المجلد الثالث، العدد 18، 2009 : 46.

(6) ينظر: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: مصطفى السباعي، دار الوراق، د.ت:76-77

(7) ينظر: رؤية إسلامية للاستشراق: أحمد غراب، المنتدى الإسلامي، لندن، ط 2، 1411هـ : 32

(8) الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية: برنارد لويس، ادوارد سعيد، دار الجيل، بيروت، ط1، 1994: 29

(9) نهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: جمعه الشريف الرضي، شرح ابن أبي الحديد، تحقيق: محمد ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، قم، ط2، ج 20: 186

(10) ينظر: تاريخ الاستشراق وسياساته الصراع على تفسير الشرق الأوسط: زكاري لوكمان، 116

(11) الإسلام الأصولي: برنارد لويس، 29

(12) الإسلام الأصولي: برنارد لويس، 30

(13) ينظر: أزمة الإسلام: 58، كذلك ينظر: جذور الغضب الإسلامي : برنارد لويس، مقال

(14) ينظر: أين الخطأ؟ برنارد لويس: 53

(15) الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق: إدوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006 :480 نقلًا عن Bernard Lewis: History remembered: Recovered، Invented (Princeton، N.J: Princeton University Press، 1975) p.68

(16) ينظر: فوبيا الإسلام والسياسة الإمبريالية : ديبا كومار، تر: أماني فهمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة،ط1، 2015: 54-55

(17) الإسلام الأصولي، برنارد لويس : 14

(18) أزمة الإسلام : برنارد لويس : 70

(19) الاستشراق: إدوارد سعيد: 395.

(20) تعقيبات على الاستشراق: إدوارد سعيد، تر صبحي حديد، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت 1996: 28

(21) أين الخطأ : برنارد لويس، 166

(22) أزمة الإسلام، برنارد لويس: 49 -50

(23) الاستشراق والقرآن الكريم بين الإنصاف والإجحاف: محمد بن صالح، جامعة القاضي عياض، تطوان، 2006: 21.

(24) ينظر: تعايش الثقافات مشروع مضاد لهنتنغتون، هاراد موللر، تر: إبراهيم أبو هشهش، دار الكتاب، بيروت، ط1، 2005م: 25.

(25) الغرب والإسلام (حوار أم صراع): د. زيد عدنان محسن، المجلة السياسية والدولية، كلية العلوم السياسية، جامعة النهرين، بغداد، 2009 : 6.

(26) ينظر: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: مصطفى السباعي، دار الوراق، د.ت: 35، كذلك ينظر: لمحات من الثقافة الاسلامية: عمر عودة :206-209، وكذلك ينظر: المستشرقون وموقفهم من التراث العربي الاسلامي: بحوث المؤتمر العلمي الاول لكلية الفقه الجامعة المستنصرية، 1986، دار الكفيل: العتبة العباسية المقدسة المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية قسم الاستشراق: ص 240

(27) ينظر: الاستشراق والمستشرقون: 73-75

(28) المستشرقون وموقفهم من التراث العربي الاسلامي: بحوث المؤتمر العلمي الاول لكلية الفقه الجامعة المستنصرية، 1986، دار الكفيل: العتبة العباسية المقدسة المركز الاسلامي للدراسات قسم الاستشراق: 209

(29) ينظر: القرآن الكريم في دراسات المستشرقين دراسة في تاريخ القرآن نزوله تدوينه وجمعه، د. مشتاق بشير الغزالي دار النفائس سوريا، ط1، 2008 : 24

(30) ينظر: الاستشراق والمستشرقون 76-77

(31) المستشرقون وموقفهم من التراث العربي الاسلامي: ص 205-206

(32) طريق على خريطة الأزمة: محمد حسنين هيكل، الأهرام، 10مارس،1970، : 19كذلك ينظر: ردود على شبهات المستشرقين: د. يحيى مراد، كتاب منشور في موقع كتب عربية على شبكة الانترنتhttps://www.kotobarabia.com /

(33) دراسات في الأدب العربي : غوستاف فون غرنباوم، ترجمة إحسان عباس وآخرون، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1959: 60

(34) ينظر: ردود على شبهات المستشرقين: د. يحيى مراد : 19-20

(35) الإسلام الأصولي: 20

المصادر والمراجع:

1.أزمة الإسلام الحرب الأقدس والإرهاب المدنس: برنارد لويس، تر: حازم مالك حسن، ميزوبوتاميا للطباعة والنشر بغداد، ط1، 2013.

2.الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق: إدوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006 .

3.الاستشراق والقرآن الكريم بين الإنصاف والإجحاف: محمد بن صالح، جامعة القاضي عياض، تطوان، 2006.

4.الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: مصطفى السباعي، دار الوراق، د.ت.

5.الاستشراق ومملكة التطرف: محمد سعدون المطوري، مجلة دراسات استشراقية، العدد6، شتاء 2016.

6.الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية: برنارد لويس، ادوارد سعيد، دار الجيل، بيروت، ط1، 1994.

7.أين الخطأ؟ التأثير الغربي واستجابة المسلمين: برنارد لويس، ترجمة محمد عناني، تقديم: رؤوف عباس، اصدارات سطور، ط1، 2003.

8.تاريخ الاستشراق وسياساته الصراع على تفسير الشرق الأوسط: زكاري لوكمان، ترجمة شريف يونس، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2007.

9.تاريخية الفكر العربي الإسلامي: محمد اركون، دار الشروق، القاهرة، 2007.

10.تعايش الثقافات مشروع مضاد لهنتنغتون، هاراد موللر، تر: إبراهيم أبو هشهش، دار الكتاب، بيروت، ط1، 2005م.

11.تعقيبات على الاستشراق: إدوارد سعيد، ترجمة صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1996.

12.جذور الغضب الإسلامي :برنارد لويس، تر: عبد الباسط منادي ادريسي، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث،2018.

13.حوار الحضارات في عالم متغير: ياسين السيد، المؤتمر الدولي حول (صراع الحضارات أم حوار الثقافات) القاهرة، 1997.

14.دراسات في الأدب العربي : غوستاف فون غرنباوم، ترجمة إحسان عباس وآخرون، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1959.

15.ردود على شبهات المستشرقين: د. يحيى مراد، كتاب منشور في موقع كتب عربية على شبكة الانترنت https://www.kotobarabia.com/

16.رؤية إسلامية للاستشراق: أحمد غراب، المنتدى الإسلامي، لندن، ط 2، 1411هـ .

17.طريق على خريطة الأزمة: محمد حسنين هيكل، الأهرام، 10مارس،1970.

18.ظاهرة الإسلاموفوبيا وأثرها على الحوار المسيحي الإسلامي: نورة عبدالله الوارد، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، 2021.

19.الغرب والإسلام (حوار أم صراع): د. زيد عدنان محسن، المجلة السياسية الدولية، كلية العلوم السياسية، جامعة النهرين، بغداد 2009.

20.فوبيا الإسلام والسياسة الإمبريالية : ديبا كومار، تر: أماني فهمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة،ط1، 2015.

21.القرآن الكريم في دراسات المستشرقين دراسة في تاريخ القرآن نزوله تدوينه وجمعه، د. مشتاق بشير الغزالي دار النفائس سوريا، ط1، 2008.

22.لمحات من الثقافة الاسلامية: عمر عودة الخطيب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1979.
23.المستشرقون وموقفهم من التراث العربي الاسلامي: بحوث المؤتمر العلمي الاول لكلية الفقه الجامعة المستنصرية، 1986، دار الكفيل: العتبة العباسية المقدسة المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية قسم الاستشراق.
24.المعايير الاخلاقية وحقوق الانسان في ضوء التطورات الدولية الراهنة : د. سلمان الجميلي، مجلة قضايا سياسية، كلية العلوم السياسية، جامعة النهرين،بغداد، المجلد الثالث، العدد 18، 2009 .
25.موسوعة المستشرقين: د. عبدالرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت 1984.
26.نهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: جمعه الشريف الرضي، شرح ابن أبي الحديد، تحقيق: محمد ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، قم، ط2.